القيم بين النسبي و المطلق

مراجعة وإعداد:

الصحبي بوقرّة

" يفكّر فلاسفة القيمة على النحو التالي: القيمة هي ما ينبغي القيام به، إذا فهي ما ينبغي أن يوجد، وهي ما لم يوجد بعد،و ربّما ما لن يوجد أبدا؛ إذا حالما يوجد شيء ما فإن وجوده لم يعدواجبا،وبالتالي فهو لا يشكّل قيمة."

P-B.GRENET : Ontologie ;p91

Tunisie DEVOIR.TN

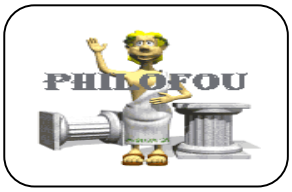

القيم و مطلب الكوني

*التفكير في الكوني هو تفكير في الإنسان و طلب الكوني هو طلب الإنساني في الإنسان لذلك يظلّ الإنساني لغزا مبهما ما لم نقاربه من جهة القيم .

Francis **Fukuyama** « *Un chien est heureux de dormir au soleil toute la journée, pourvu qu'il soit nourri, parce qu'il n'est pas insatisfait de ce qu'il est. Il ne se soucie pas de ce que d'autres chiens fassent mieux que lui, ou que sa carrière de chien soit restée stagnante* » *La Fin de l'Histoire et le dernier homme*

* التفكير في الكوني كمطلب يدفعنا ضرورة إلى استدعاء مسألة القيم أو الوجود القيمي.
* النظر للكوني بما هو مطلب يعني أن الكوني ليس واقعا أي أنه يحيل على مجال المنشود الممكن لا على مجال الموجود المتعيّن؛ مما يعني أن الكوني قيمة تنشد، بحيث لحظة نفكرّ في الكوني نفكرّ فيه كقيمة او نفكرّ في القيم.
* لقد أصبح سؤال القيم من الأسئلة التي تطرح نفسها بحدة خاصة في الزمن المعاصر،زمن هيمنة الكوني الايديولوجي أو كوني عولمة الإنساني، و عولمة قيمه، و بالتالي إن الأزمة الحقيقية التي يواجهها الإنسان اليوم ليست أزمة علم ولا أزمة حقيقة و إنما أزمة قيم.وعندما نتحدث عن الكوني الايديولوجي باعتباره يحيل على كوني الموت نحن نعلن عن خجل الموت السريري للقيم؛ هذا الراهن هو الذي يفرض علينا نوعا من التعامل الجديّ و الفلسفي بحيث تشكلت لدينا قناعة تلزمنا بالتفكير في مسألة القيم بل و في مطلب الكوني أو مشروعية اعتباره مطلبا.

في السؤال عن القيمة بين المطلق و النسبي

*ما القيمة ؟: تعني القيمة في اللغة المقدار فيقال قيمة الشيء مقداره وقيمة المتاع ثمنه ، و القيمة هي الخاصية التي إذا وجدت في شيء جعلته مرغوبا فيه، أو جديرا بان يكون كذلك، وأحكام القيمة هي الأحكام التي تفيد الاستحسان أو الاستهجان نتيجة خاصية حسنة أو خاصية سيئة في الإنسان؛ القيمة التي طالما تُشتق من (القيام) بمعنى العزم أو بمعنى المحافظة والإصلاح أو بمعنى الوقوف والثبات، أي التوقف في الأمر من غير مجاوزةٍ له، والاستقامة بمعنى الاعتدال والعدل. لذلك ارتبط الأصل الاغريقي لكلمة أكسيولوجيا بمعنى الشيئ الثمين أو الجدير بالثقة؛ أما الناحية الموضوعية فتطلق على ما يتميز به الشيء ذاته من صفات تجعله مستحقا للتقدير إن كثيرا أو قليلا. و بالتالي فالقيم التي تدعو إليها الفلسفة في إطار اهتمامها بالإنسان، هي قيم روحية معنوية تثير في النفس حب الكمال الأخلاقي وتسمو بالنفس نحو عالم الحق والخير والجمال. و لكن ما الذي يبررّ الحديث عن القيمة في صيغة الجمع؟ أي ما الذي يدفعنا- خاصة في المجال الأخلاقي و السياسي -بدل الحديث عن القيمة للحديث عن القيم؟هل تردّ كثرة القيم و تنوعّها إلى تعددّ مجالات القيم؟ و هل يمثلّ الحديث عن الكثرة والتنوعّ مبررّا لرفض فكرة اطلاقية القيم؟ أم يمكن أن نتحدثّ عن قيم مطلقة داخل مجال معيّن؟ إذا كان ذلك ممكنا فما المقصود بإطلاقية القيم؟

Tunisie DEVOIR.TN

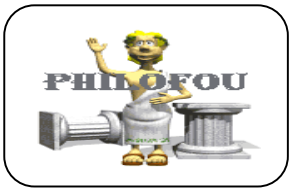

*"المُطلَق" في المعجم الفلسفي (هو عكس النسبي) ويعني «التام» أو «الكامل» المتعرى عن كل قيد أو حصر أو استثناء أو شرط، والخالص من كل تعيُّن أو تحديد، الموجود في ذاته وبذاته، واجب الوجود المتجاوز للزمان والمكان حتى إن تجلى فيهما. والمطلق عادةً يتسم بالثبات والكونية، فهو لا يرتبط بأرض معيَّنة ولا بشعب معيَّن ولا بظروف أو ملابسات معيَّنة. والمُطلَق مرادف للقبْليّ، والحقائق المطلقة هي الحقائق القبْلية التي لا يستمدها العقل من الإحساس والتجربة بل يستمدها من المبدأ الأول وهو أساسها النهائي. والإطلاقية في الأخلاق هي الذهاب إلى أن معايير القيم - أخلاقية كانت أم جمالية - مطلقة موضوعية خالدةٌ متجاوزةٌ للزمان والمكان، ومن ثم يمكن إصدار أحكام أخلاقية. أما في السياسة، فهي تعني سيادة الحاكم أو الدولة بغير قيد ولا شرط. والدولة المطلقة هي الدولة التي لا تُنسب أحكامها إلى غيرها فمصلحتها مطلقة وإرادتها مطلقة وسيادتها مطلقة. و لكن ألا يمكن ان تكون فكرة المطلق أو الحديث عن المطلق في القيم مجردّ وهم من صنع الفلاسفة؟ ألا يحيل الوهم على حلم مطلب و على أن فكرةالمطلق لا علاقة لها بالواقع السياسي و الأخلاقي بقدر ما تحيل على تفكير عقول حالمة؟ ما الذي يبررّ القول بوهمية اطلاقية القيم؟

أولا: نميزّ بين دلالة نفس القيمة عندما نتحرّك في مجالات متعددّة [المجال السياسي/الأخلاقي/الاقتصادي...]

ثانيا: تختلف دلالة نفس القيمة داخل نفس المجال [الحق/السيادة/العدالة/الواجب...].

ألا يتحولّ بهذا المعنى القول باطلاقية القيم قولا ظنيا أو حكما هو موضوع تظننّ؟ ألا يدفعنا منطق التظننّ هذا على اطلاقية القيم إلى القول بنسبيّتها؟ ماذا نعني بنسبيّة القيم؟ بل على ماذا تحيل فكرة النسبيّة [1] بعامة؟

> *Aristote «On appelle relatives ces choses dont tout l'être consiste en ce qu'elles sont dites dépendre d'autre choses, ou se rapporter de quelque façon à autre chose.», Organon, Catégories 7.*

تفيد النسبية نسبة حكم أو قيمة أو معيار إلى نسق ما وزمان ما و مكان ما و سياق ما، بحيث تكون ما تنتسب إليه القيم هو المحددّ الماقبلي للقيم ذاتها. إذا ينُسَب النسبي إلى غيره ويتوقف وجوده عليه ولا يتعيَّن إلا مقروناً به، وهو عكس المطلق، وهو مقيد وناقص ومحدود مرتبط بالزمان والمكان يتلون بهما ويتغيَّر بتغيرهما، ولذا فالنسبي يبدو نقيض الكوني. بهذا المعنى ألا تفيد النسبية معنى التعددّ و الكثرة والاختلاف والتناقض؟ ألا ينفي منطق النسبيّة تعالي القيم؟ بمعنى ألا يشرّع القول بنسبيّة القيم للقول باختلافها و تناقضها؟ ألا تحيل فكرة النسبيّة بهذا المعنى على عيب في القيم أو هون يحدّ من تعاليها؟ نسبيّة القيم ألا تفيد منطقا عدميّا طالما أن النسبية تبدو بهذا المعنى استبعادا للاطلاقية؟

لكن ألا يمكن أن نتجاوز المنطق الاختزالي الذي لا يرى في القيم إلا مطلقة أو نسبيّة؟ ألا يمكن القول بنسبية القيم دون نفي امكانية اشتراك الانسانية في منظومة قيمية واحدة؟ ألا تقودنا حكمة العيش معا إلى الاعتراف بالاختلاف والخصوصية القيمية –من ناحية- و الاقرار بأرضية قيمية مشتركة أو قاسم مشترك قيمي مشترك؟ ألا يمكن أن نتحدث عن وحدة الكثرة و اطلاقية النسبية و ذلك انطلاقا من الاجماع على

[1]-أول عبارة واضحة عن النسبية ظهرت في قول أفلاطون:" تظهر الأشياء لي، كما توجد بالنسبة لي، وتظهر الأشياء للآخرين، كما توجد بالنسبة لهم" فالنسبية تقرر أنه لا يوجد هناك حقيقة موضوعية، فما أراه هو الحقيقة بالنسبة لي، وما تراه هو الحقيقة بالنسبة لك.

Tunisie DEVOIR.TN

معايير لا يكون الانسان بدونها إنسانا من ناحية و انطلاقا من اعتبار وحدة المصير الإنساني من نا حية أخرى؟

في السؤال عن مجالات القيم

*ألا يرتبط الحديث عن القيم بالحديث عن الإنسان بما هو كائن مثقل بالقيم لا بمعنى أنه يتخذ من القيم أساسا لممارساته فحسب و إنما بما هو كائن يخلق القيم و يمارس فعل التقويم ؟ أليس من المفترض لحظة الحديث عن حضور القيم في حياة الإنسان أن نتحدّث عن تعددّ مجالات هذه الحياة و بالتالي عن تعدد القيم داخل هذه المجالات بل و حتى داخل المجال الواحد؟ ألا يبدو السياسي أولّ ما يسم الوجود الإنساني إلى حدّ قيل معه الإنسان حيوان سياسي Zoon Politikon ؟ ألا يعني ذلك أن اشتغالنا على القيم هو اشتغال-في وجه من وجوهه- على الفضاء السياسي و منظومته القيمية ؟ إذا كان لكل مجال معاييره القيمية ألا تقتضي مقاربة المجال السياسي التساؤل عن المعايير التي تحكمه ؟ فهل يمكن النظر إلى معياري العداء و الصداقة على أنه معياري المجال السياسي ؟ هل يمكن لهذه المعايير أن تمثلّ مبادئ أو قيم مطلقة أو تحكم كلّ فعل أو كل ممارسة سياسية ؟ ألا يتضمّن هذا التمييز بين السيادة و المواطنة بعامة حكما أخلاقيا ؟ هل يعني ذلك أن أساس السياسي أخلاقي و أن معايير السياسي وقيمه هي في عمقها أخلاقية ؟ يبدو أن الوجود القيمي للإنسان يظل مبتورا إذا ما اختزلناه في السياسي فلا معنى لهذا الوجود ما لم نستدعي فضاءه الأخلاقي ؟ الحديث عن المجال الأخلاقي يفيد استحضار قيم الخير و الشر أو اللذة و الألم او السعادة والشقاء، فأيّ صلة بين الخير و اللذة و السعادة من جهة و بين الشر و الشقاء و الشر من ناحية أخرى؟ وهل من الممكن الفصل بين السعادة و الخير من ناحية و بين التعاسة و الشر من ناحية أخرى ؟ بل هل من المشروع أن نقيم صلة بين أخلاق الخير و أخلاق السعادة ؟ و هل ينبغي النظر إلى السعادة و الخير من ناحية و الشر و الشقاء من ناحية أخرى بما هي قيم مطلقة أم بما هي قيم نسبية ؟

بل لعلّ السؤال الأعمق و نحن نستحضر الأخلاقي في مجال الحديث عن السياسي أن نتساءل هل من المشروع أن نجعل من الأخلاقي أساسا للسياسي و الحال أنّ العرف يقرّ بأن لا أخلاق في السياسة و لا سياسة في الأخلاق أو أن الموقف الايجابي اخلاقيا سلبي في المجال السياسي و الموقف الأيجابي سياسيا لا أخلاقي ؟أليست محاكمةالسياسة بلغة ما يجب أن يكون محاكمة صماء لا تخاطب السياسي بلغته ؟

بقطع النظر عن موقفنا من الصلة بين الأخلاقي و السياسي يظهر السؤال الأكثر ارباكا على هذا النحو:

- هل تحددّ القيم السياسي و الأخلاقي أم أن السياسي و الأخلاقي هي المجالات التي تحددّ القيم ؟ بلغة أخرى هل تعدّ القيم مبادىء الفعل الأخلاقي و السياسي أم منتهى هذا الفعل ؟ و هل تكشف فعاليّة الأخلاقي كما السياسي ما يكون إنسانيا في الإنسان ؟

Tunisie DEVOIR.TN